

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

إن العالم الذي نعيش فيه عالم تصطرع فيه العقائد والأفكار، وتتصادم فيه المبادئ والآراء، وقد اقتضت سنة الله في هذا الكون أن يكون الصراع بين الخير والشر صراعاً مستمراً ما استمرت الحياة، وأن الإسلام الذي هو خير كله - ولذلك اختاره الله ديناً للبشرية - لن يُترك من قبل قوى الشر، ولا تزال شياطين الإنس والجن تواجهه بشتى الأسلحة منذ أن بُعث محمد بن عبد الله ﷺ إلى يوم الناس هذا.

وإن أخطر الأخطار التي تهدد هذا الدين ما كان منها داخلياً نابعاً من صفوف متبعيه، فالذي يتتبع حركة هذا الدين في التاريخ يجد مصداق ذلك، فكل أنواع الإخفاق والانهزام التي مني بها أصحابه كانت أسبابها الرئيسية ترجع إلى تراخ في التمسك بهذه العقيدة، أو عدم وضوح في التصورات والأهداف يعتري الناس، أو غفلة عن مبادئ هذا الدين في خضم تصارع القوى والأفكار حوله. وكل العلامات المضيئة في مسيرته

التاريخية ترجع إلى انتباه المسلمين إلى ما يملكون من رصيد مادي ومعنوي؛ حيث يعتزون بدينهم، ويشعرون بفداحة الأخطار التي تهددهم من خلال استهداف الأعداء دينهم؛ فيجتمعون على هدف موحد، ويسيطرون إليه بخطوات واثقة يستهدون كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، ويستلهمون معاني القوة والاعتزاز وكراهية الظلم بشتى أشكاله من ذلك الرصيد العظيم.

وقد اقتضت حكمة الله أن يكون العلماء هم الرواد الذين يحملون النور في الظلمات الخالكة، وأن يكون علمهم هو الهادي للمسلمين حين تطبق عليهم الخطوب وتفدحهم المصائب، فيثبون بهذا العلم الثقة في النفوس المهزومة، ويعثون الأمل في القلوب المقهورة، ويشخصون الداء، ويصفون الدواء بحكمة الطبيب النطاسي.

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي بدأ المسلمون يتنبهون لواقعهم الذي ألوا إليه: تراجع في القوى، وتشتت وتفراق، وملوك وولاة أنهكوا شعوبهم بظلمهم وعسفهم واستبدادهم، وأماتوا فيهم عوامل الوثوب والمقاومة، حتى غدوا جهلاء فقراء بجانب أم الغرب التي بدأت تهددهم بل عدت عليهم وغزتهم، وأخيراً قضت على آخر كيان سياسي كان يتكلم باسم هذا الدين وهو الدولة العثمانية، وتمكنت من أن تسيطر على بلدانهم وثرواتهم، وتجعلهم وبلدانهم غداءاً لمصانعها وبطونها، وسوقاً لمنتجاتها، وقبل كل ذلك وضعت الخطط

والبرامج من أجل تغيير عقائد هذه الشعوب، وقطع صلتها بتشريعيها وقيميها وأخلاقها، وإحلال عقائد ومناهج الغرب الكافر محلها، فتقترب العقول من العقول، وتردم الهوة السحيقة التي تفصل بين قيم وقيم، وعادات وعادات، فتسلس لها قيادة هذه الشعوب، ويسهل لها تحقيق مطامعها في بسط الهيمنة ورفع الحضارة الغربية النصرانية الوثنية، وتدمير المعاني الإسلامية.

ومنذ ذلك الحين إلى الآن قامت دعوات ونهض أفراد، يرفعون رايات الإصلاح ويبينون مكامن الخطر؛ كل حسب رأيه وقدراته ومنازعه الثقافية.

وكان دعاة الإصلاح - وما زالوا - كل له رأيه في الإسلام، فكان أن جعلته طائفة أساساً لعملها، وطائفة تجاهلته، وطائفة اختارت منه أشياء ورفضت واستبعدت أشياء يدفعها إلى ذلك التحكم المحض تارة، أو الانهزام أمام الأفكار الوافدة تارة أخرى، أو الغرور مرات كثيرة.

على أن الأمر الذي آثار - ويشير - البلبلة في الأفكار، وخاصة أفكار الشباب هو أن أغلب رواد الإصلاح كانوا يرفعون راية الدين، ويدعون أنهم على الجادة التي ترك محمد بن عبد الله ﷺ أصحابه عليها، مع أن أغلب أولئك الرواد قد شابت مسالكهم الشوائب، وخالطت منهاجهم أمور غريبة كانت نتيجة تصور غير صافٍ للمنهج الإسلامي الأصيل.

وهذه الدراسة التي نقدم لها تتناول هذه القضية الخطيرة، قضية التجديد والإصلاح، وتصب في صميم تحديد المنهج الذي يجب أن ينتهجه المسلمون لكي يخرجوا مما هم فيه من الضعف العقائدي، ويرتفعوا عن وهدة الذل والهوان التي صاروا إليها. وقد طرح هذا الموضوع الحساس على بساط البحث قديماً وحديثاً، وتناولته طائفتان من الكتاب:

١ - طائفة يمكن أن نطلق عليها اسم: (هواة الكتابة)، حيث وجدوا هذا الموضوع مستطرفاً، فتناولوه إشباعاً لهواية الكتابة عندهم لا انطلاقاً من شعور مُلِحٍّ، وإحساس تفاعلي بينهم وبين الواقع.

٢ - وطائفة من العلماء الأعلام تعرضت له تعرضاً خفيفاً حسبما يقتضيه ما هم بصدد من بيان المراد بالجملة لا بالتفصيل، وشرح لمضمون حديث (المجدد) حينما يعرض في دواوين السنة.

وهذه الدراسة - التي بين أيدينا - لموضوع التجديد والمجددين، نأمل أن تكون مستوعبةً له، مقصورة عليه. وقد دفع إليها الإحساس بالحاجة إليه في هذا الوقت الذي توالى فيه المحن والشدائد على حَمَلَةِ هذا الدين، وقلَّ العلم وكثُرَت الدعاوى، وتعددت اللافتات المرفوعة.

وسنحرص في هذا البحث(*) على بيان الأدلة الشرعية من كتاب

(*) نشر هذا البحث على حلقات في مجلة البيان، في الأعداد من ١ - ٨.

الله وسنة رسوله ﷺ، مع بيان مبلغ كل حديث من الصحة عند الاستشهاد، ونقل أقوال العلماء المحققين، وتقديم دراسة تاريخية لأبرز المجددين، مع ربط هذه الأمور بواقع عصرنا.